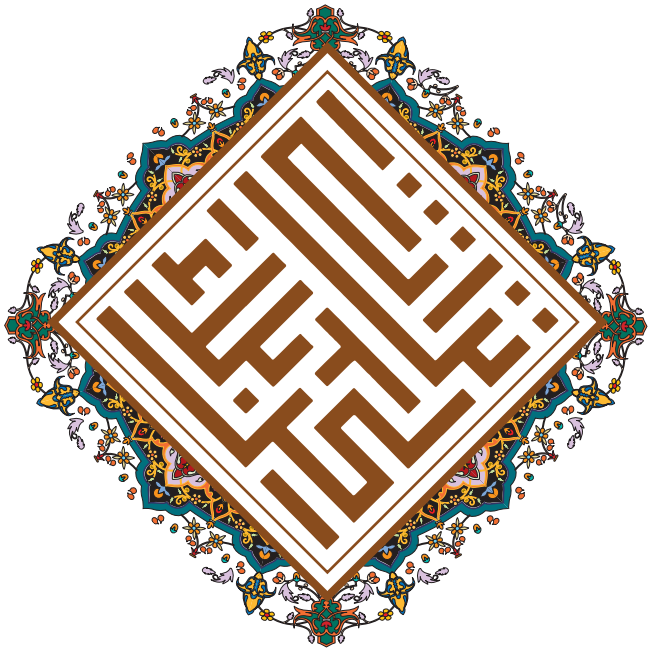

مَجَلَّةٌ فَصْلِيَّةٌ مُحَكَّمَةٌ

تُعْنى بِالتُراث الكَربَلائي

مُجَازَةٌ مِنْ وزَارَةِ التَّعْلِيْمِ الْعَالِي وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ

مُعْتَمَدَةٌ لِأَغْرَاضِ التَّرْقِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ

تصدر عن:

العتبة العباسيّة المقدّسة

قسم شؤون المعارف الإسلاميّة والإنسانيّة

مركز تراث كربلاء

السنة الحادية عشرة/ المجلَّد الحادي عشر/ العددان الثالث و الرابع (٤١-٤٢)

جمادى الآخرة ١٤٤٦هـ/ كانون الأوّل ٢٠٢٤م

سرديَّةُ الشخصيَّةِ الإيجابيَّةِ في كتابِ (تَسْلِيَةِ المُجالِس وزينة المَجالِس) للحائريِّ الكركيِّ، قصَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام اختياراً

The Narrative of the Positive Character in the Book Tasliyat Al-Majalis wa Zinatu Al-Majalis by Al-Haeri Al-Karki (The Story of Prophet Yusuf, Peace Be Upon Him, as a Model)

أ.د رائد حميد البطاط / م.د تغريد خليل حامي

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الإنسانية

المديرية العامة للتربية في محافظة ذي قار

Prof. Dr. Raid Hameed Al-Battat

University of Thi-Qar / College of Education for Humanities

Taghreed Khalil Hami

Asst. Lecturer. Taghreed Khaleel Hami

General Directorate of Education in Thi-Qar Province

الملخص

في متنِ النصِّ القصصيِّ تشكَّلت الخصائص الإيجابيَّة للشخصيَّاتِ المتفاعلة مع الأحداث المتتابعة في زمان ومكان مُحدَّدَين؛ إذ تمتلك هذه الشخصيَّات الإيجابيَّة القدرة على اتِّخاذِ مواقف حاسمة في مشاعرها وأفكارها تجاه الآخرين، فضلاً عن ذلك تعبِّر تعبيراً واضحًا عن الواقع الاجتماعيِّ والثقافيِّ والسياسيِّ وعلاقة هذا الواقع بمحيط الشخصيَّة الديناميَّة الخارجيّ المتَّصل بها من جهة، ومحيطها الداخليِّ الهادف بأفكارها وانفعالاتها الوجدانيَّة من جهة أخرى، وذلك من أجل إبلاغ معاني النصِّ القصصيِّ ودلالاته المقصودة بإطار حكائيٍّ منظَّم باعث على تحريك مشاعر المتلقِّي وأحاسيسه، ومن ثمَّ استجابته استجابةً مؤثِّرة ومتأثِّرة، وذلك بملء فراغات النصِّ وتفسير رموزه وتأويلها، بوساطة عمليَّة القراءة الفعَّالة والتأويل المتعدِّد.

الكلمات المفتاحية: سرديَّة، الشخصيَّة الإيجابيَّة، تسلية المجالس، الحائريّ الكركي، نبي الله يوسف عليه السلام.

Abstract

Within the text of the narrative, the positive traits of characters interacting with sequential events in specific times and places emerge clearly. These positive characters possess the ability to take decisive stances in their emotions and thoughts toward others. Additionally, they vividly reflect the social, cultural, and political realities and their connection to the external dynamic environment of the character, as well as the internal purposeful environment shaped by their thoughts and emotional responses.

This dual interaction seeks to convey the meanings and intended messages of the narrative text within a structured storytelling framework, designed to evoke the feelings and emotions of the audience. This prompts the audience to respond both emotionally and intellectually, filling in the gaps of the text, interpreting its symbols, and deriving its meanings through active reading and multi-layered interpretation.

Keywords: Narrative, Positive Character, Tasliyat Al-Majalis, Al-Haeri Al-Karki, Prophet Yusuf.

المقدمة

بِسمِ الله الرحمن الرحيم

بسم الله الذي باسمه نستعين، والحمد لله الذي أنعم على الخلق أجمعين، والصلاة والسلام على خير خلقِ الله محمَّد الأمين، وعلى آله الطيبين الميامين وسلَّم تسليماً كثيرًا.

أمَّا بعد... فإنَّ الشخصيَّة هي مدار الدلالات والأفكار ووجهات النظر، ولهذه الأفكار والآراء المحور الأساس والرئيس في النصِّ الأدبيِّ؛ أي أنَّ أهميَّة الشخصيَّة تأتي من وصفها عنصرًا فعَّالًا ومؤثِّرًا يتواشج داخلَ النصِّ، وينسجم مع عناصر السرد الأُخَر ويتفاعل معها؛ لتكوين المشهد السرديِّ بأحداثه في زمان ومكان محدَّدين. وعليه يمكن تحديد الشخصيَّة الإيجابيّة بِعدِّها مرتكزًا للأحداث المتتابعة تتابعاً سببيًّا ومنطقيًّا، فتتطوَّر من حدث إلى آخر؛ غايتها القصديَّة في ذلك تكمن في الثورة على الواقع المتناقض ومحاولة تغييره بشتَّى الأساليب، بما تمتلكه من قدرةٍ فائقةٍ وإرادةٍ قويَّةٍ في اتِّخاذ أفعال إيجابيّة في أفكارها ومشاعرها الوجدانيَّة تجاه الشخصيَّات الأُخَر في النصِّ السرديِّ.

أمَّا سببُ اختيار قصَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام في كتاب (تسلية المُجالِس وزينة المَجالِس) ؛ فقد كان لغاية؛ الهدف منها دراسة شخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام؛ لأنّها من الشخصيَّات الإيجابيّة التي تمتَّعت بوجود مستقلٍّ عن الشخصيَّات الأخر، وذلك لكونها تتمحور فيها الأحداث المتأزِّمة على وفق منطق السببيَّة بديناميَّتها وأفعالها المختلفة من جانب، والأكثر وروداً في كتاب (تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس) من جانب آخر.

ومن هنا تهدف الدراسة إلى البحث في سرديَّة الشخصيَّة الإيجابيّة شخصيَّة نبي الله يوسف عليه السلام التي تضمَّنها كتاب (تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس) عبر دراسة صور الشخصيَّة الإيجابيَّة، وذلك بوساطة البحث في المصادر التي تستمد منها هذه الشخصيَّة عزمها وقوتها ورغبتها في تحقيق غاياتها وأهدافها بصورة فعَّالة.

وتأسيساً على ذلك تقوم الدراسة على محاور يمكن بيانها على وفق الآتي:

١. الثبات والإصرار والصبر والمثابرة عليه من الحدث العنيف المؤثِّر الذي يواجه الشخصيَّة الإيجابيَّة.

٢. التقوى والاستقامة بوصفها قوّة تستمد منها الشخصيَّة إيجابيّتها.

٣. الدور القيادي الفعال والقدرة على مواجهة الأحداث المتنامية والتفاعل معها.

وهذه المحاور السرديّة تتجاوز السرد وأساليبه إلى الأحداث المرمَّزة في تشكيل حكائيّ منفرد؛ إذْ خلقت هذه الأحداث في النصِّ القصصيّ عبر شخصيّات صنعتها وتفاعلت معها في مشاهد زمانيَّة ومكانيَّة.

مدخل

الشخصيَّة السرديَّة:

إنَّ تشكُّل نسيج الحكي واتصال حلقاته يرتبط ارتباطًا كبيرًا بما يميِّز شخصيَّاته من العمل والإسهام الفعَّال في تتابع الأحداث وتناميها، وما ينمّ عنها من أقوال وحوارات وأفعال تختلف باختلاف دلالاتها وتتباين مواقعها ومستوياتها[١]. ومن هنا توصف الشخصيَّة بأنّها عنصرٌ حكائيٌّ فاعلٌ ومتفاعلٌ تدخل في شبكة علاقات ديناميّة متعدّدة مع الشخصيّات الأُخَر في ضمن مكنونات النصِّ القصصيِّ وأحداثه، فهي نقطة تعالق بين جميع الأجناس السرديّة لما تقتضيه من حركة وفاعليَّة[٢]، أي «إنَّها ليست معطى قبليًّا وكلِّيًّا وجاهزًا، إنَّها تحتاج إلى بناء، بناء يقوم بإنجازه النصّ لحظة (التوليد) وتقوم به الذات المستهلكة للنصّ لحظة التأويل»[٣].

وعليه لا يُوجَد سرد من دون شخصيَّة متفاعلة مع عناصر الحكي الأخرى لتشكيل نصٍّ قصصيٍّ سرديّ، يستمدّ قيمته الفنيّة وجماله، وقوَّة جاذبيّته الفعّالة من شخصيّاته، وكلّ ما تملكه من أبعادٍ فكريَّةٍ ونفسيَّة واجتماعيَّة، زد على ذلك انفعالاتها الوجدانيّة العاطفيّة، وكلُّ ما تعكسه من قيم وتجارب وتصوّرات[٤]؛ وذلك لأنَّها بمنزلة دليل واضح له صورتان: أولاهما (دال) عندما تتَّخذ أسماء

(١) يُنظر: سرد الأمثال، دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية: ١٢٩.

(٢) يُنظر: التحليل السيميائي والخطاب: ١٠٨.

(٣) سيميولوجيَّة الشخصيَّات الروائيّة: ١٥.

(٤) يُنظر: طرائق تحليل السرد الأدبي: ٢٣.

ذات دلالات مختلفة أو خصائص توضّح هويَّتها، وثانيهما (مدلول) فتكون مجموع ما يُقال ويفسَّر عنها عبر جُمَلٍ متناثرة في النصِّ القصصيِّ، أو عبر أفعالها وأقوالها ومواقفها وسلوكها، فلا تكتمل صورها إلَّا عندما يكون النصُّ قد بلغ نهايته الحتميَّة المتوقَّع حدوثها، أو تقع الأحداث بصورة مفاجئة غير متوقَّعة الحدوث؛ لتكسر أُفُقَ توقُّع القارئ وتُدْهشه[١].

وتأسيسًا على ذلك يمكن القول: إنَّ الشخصيَّة هي مدار المعاني والدلالات الإنسانيَّة، ومحور الأفكار والآراء ووجهات النظر، ولهذه المعاني والأفكار والآراء المكانة الأولى والأساس في النصِّ السرديِّ[٢]؛ وذلك لأنَّها مركز النصِّ ومصدر فاعليَّته، و«يجب أنْ تتمتَّع الشخصيَّة بمقدار كبير من الإمتاع؛ أي أنْ تكون شخصيَّة حقيقيَّة، بمعنى أن تكون لها قدرة أن تفعل ضمن منطقها ومنطق الأحداث معاً، وقد تضاف ملاحظة أيضاً أنّ الضرورة تقتضي بوجود مسافة معيّنة بين الشخصيَّة والراوي»[٣].

وإنَّ أهميَّة الشخصيَّة الحكائيَّة تأتي من وصفها كائنًا ديناميًّا يتعالق داخل النصِّ القصصيِّ، وينسجم مع عناصر الحكي الأُخَر ويتفاعل معها؛ لتكوين المشهد السرديِّ بأحداثه وزمكانيَّته. وعليه يمكن تحديد خصائصها وصفاتها الشخصيَّة النفسيَّة والعقليَّة، وفضلاً عن ذلك تحديد تداخلاتها مع الشخصيَّات السرديَّة الأُخر في النصِّ القصصيِّ؛ إذْ تتباين هذه الشخصيَّات من جهةِ مركزيَّتها أو هامشيَّتها، ومن جهة ثباتها أو حركتها، وكذلك من جهةِ انسجامها الذاتيِّ أو عدم انسجامها، لأنَّها كما يُصنِّفها بارت كائنات من ورق، لذا سيتمُّ تحديدُها

(١) يُنظر: شعرية الخطاب السردي، دراسة: ٩.

(٢) يُنظر: النقد الادبي الحديث: ٥٢٦.

(٣) الكاتب والمنفى: ١٧٢.

والتعامل معها بِعَدّها وجوداً وكياناً يستقي أساسه من الوجود الإنسانيّ[١]، ومن هنا فإنَّ أهميَّة الشخصيَّة تتمركز في «تمكُّن مبدعها من الكشف عن الصلات البعيدة بين ملامحها الفرديّة، وبين المسائل الموضوعيّة العامَّة، ومن قدرتها على جعلها تعيش أشدَّ قضايا العصر تجريدًا وكأنّها قضاياها الفرديّة المصيريّة»[٢].

الشخصيَّة الإيجابيّة:

الشخصيَّة السرديّة من حيث مواقفها بإزاء الوقائع والأحداث وفعاليَّتها وتأثُّرها بها نوعان؛ سلبيَّة وإيجابيَّة، والشخصيَّة السلبيَّة هي التي «يعرِّفها اسمها ويحدِّدها مصطلحها، فهي تلك التي لا تستطيع أنْ تؤثِّر، كما لا تستطيع أنْ تتأثَّر»[٣]؛ أي ذات نظرة تشاؤميَّة واضحة في أفعالها ومواقفها المختلفة، فتفقد الثقة بذاتِها وقدراتِها نتيجة فشلها في الانسجام والتآلف مع واقعها؛ لأنَّ شعورها بالهزيمة والإحباط والاستلاب يدفعُها إلى الرضوخ والاستسلام للظروف القاهرة المحيطة بها.

أمَّا الشخصيَّة الإيجابيَّة: فهي التي تستطيع أنْ تكون مرتكز الأحداث أو محور اهتمامٍ لجملةٍ من الشخصيَّات الحكائيَّة الأخر عبر العمل السرديِّ، فتكون ذات فعاليَّة وقدرة على التأثير[٤]. وتُقَاس إيجابيَّة الشخصيَّة بـ «القيمة التي يتعلَّق بها الفرد؛ فهي التي تصنع شخصيَّته»[٥]، أي إنَّها الشخصيَّة التي تتفاعل مع الأحداث المتوالية تواليًا سببيًّا ومنطقيًّا، فتتطوَّر من حدثٍ وواقعةٍ إلى أخرى؛ هادفة بذلك

(١) يُنظر: السرد في مقامات الهمذاني: ٥٠ -٥١.

(٢) دراسات في الواقعية: ٣٨.

(٣) في نظرية الرواية، بحث في تقنيَّات السرد: ٨٩.

(٤) يُنظر: المصدر نفسه: ١٠٢.

(٥) علم النفس والأدب: ٢٠.

إلى الثورة على الواقع ومحاولة تغييره بشتَّى الوسائل والأساليب، والانتقال به من حالة السكون إلى حالة الديناميَّة المستمرَّة؛ بما لديها من ثقافة ووعي، وهي في علاقة إيجابيَّة وثيقة مع ذاتها ومع الآخر الذي تتعامل معه[١].

فالنصُّ القصصيُّ يستند إلى تجربة هذه الشخصيَّة التي تمثِّل«في قوّة حضورها مركز الحدث وأساس حركته، وهي تستمدُّ سماتِها من واقع معلوم... تُقَدّم داخل النصِّ باسمها وكنيتها ولقبها، وقد يمتدُّ النصُّ ليشمل بإضاءته صفاتها الجسديَّة والمعنويَّة »[٢]، وهي بذلك تنكشف خصائصها وسماتها الخاصَّة للقارئ شيئًا فشيئًا كلَّما تقدّمت في النصِّ القصصيِّ، «وتفجؤه بما تغنى به من جوانبها وعواطفها الإنسانيَّة المعقّدة. ويقدِّمها القاصُّ على نحو مقنع فنيًّا، فلا يعزو إليها من الصفات إلَّا ما يبرِّر موقفها تبريرًا موضوعيًّا في محيط القيم التي تتفاعل معها»[٣].

واستناداً إلى ذلك يمكن القول: إنَّ الشخصيَّة الإيجابيَّة تحمل في أغوارها شعوراً وإرادةً قويَّة قادرة على تغيير الواقع القائم آنذاك، وهي بهذا ديناميَّة تتَّصف بأبعاد نفسيَّة شعوريَّة ومعقَّدة، وتنفرد بقدرتها على إثارة المفاجأة والدهشة بشكل مقنعٍ بالتحوّلات المدهشة التي تطرأ عليها داخل البنية الحكائيَّة الواحدة[٤]. وذلك تبعاً لتصوير مشهديٍّ ينماز بالإنسانيَّة، بما تمتلكه من جاذبيَّة وقدرة فائقة على التأثير فيمن حولها من الشخصيَّات الأُخَر في

(١) يُنظر: غائب طعمة فرمان روائيًّا: ١٠٢.

(٢) سرد الأمثال، دراسة في البنية السردية لكتب الأمثال العربية مع عناية بكتاب المفضل بن محمَّد الضبي، أمثال العرب: ١٤٢.

(٣) النقد الأدبي الحديث: ٥٣٠.

(٤) يُنظر: أركان القصة: ٩٥.

النـصِّ القصصـيِّ؛ إذْ تتمظهَر قدرتُها فـي اتِّخاذ أفعال إيجابيَّة في مشـاعرها وانفعالاتهـا الوجدانيَّـة تجاه الآخرين، والحسـم فـي القضايـا المعلَّقة بقوَّة إرادتها وإيجابيَّتها بعيدًا عن التردُّد العاطفيِّ والفكريِّ الذي يصيبها بالضعف، ويفقِدُها تأثيرها وقيمتها في صياغة الأحداث المتتابعة في النصِّ القصصيِّ[١].

والراوي يقدِّم الشخصيَّة الإيجابيّة بطريقتين ديناميَّتَين:

الأولـى: أن يبرِّزها شـخصيَّة متكافئـة مع ذاتِها، ممّا يعنـي أنَّها منطقيَّة غير متناقضـة في خصائصها ومواقفها المختلفة، فتوضَّح وتعلَّل بالحالة النفسـيَّة الشـعوريَّة التـي تعيشـها؛ إذ تغيِّر أفكارهـا ونظرتها للحياة بتطـوُّر الأحداث المتتابعـة، لكنَّها مبيَّنة في ضوء طبيعة صراعها وغاياتها القصديَّة، ممَّا يسـهِّل على المتلقِّي فهم مواقف هذه الشخصيَّة والحكم عليها.

والثانيـة: يقدِّمهـا الروائيُّ في غايـة التعقيد لعدم استسـلام دوافعها الذاتيَّة لحكـم معيَّـن ممَّا يصعـب علـى المتلقِّـي تفسـيرها والحكم علـى أفعالها ومواقفها[٢].

السيِّد الحائريُّ الكركيُّ وكتابه (تسلية المُجالِس وزينة المَجالِس)

السيِّد محمَّد بن أبي طالب بن أحمد بن محمَّد بن طاهر بن يحيى بن ناصر ابن أبي العزِّ الحسـينيّ الموسـويّ الحائريّ الكركيّ، عالم كبير وشاعر وناثر وأديـب جليل، وهو صاحـب كتاب (**تسـلية المُجَالِس وزينـة المَجَالِس**) أو ما يسمَّى بمقتل الحسين عليه السلام[٣].

(١) ينظر: بناء الرواية، دراسة في الرواية المصرية: ١٢٠.

(٢) يُنظر: النقد الأدبي الحديث: ٥٣٠ - ٥٣١.

(٣) ينظر: تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١١-١٣.

وُلِد في الكرك (قلعة حصينة جدًّا في الشام) من أسرة شيعيَّة أصلها من العراق كما ذكر ذلك السيِّد الحائريّ الكركيّ في مقدّمة كتابه: «محمَّد بن أبي طالب بن أحمد بن محمَّد المشهور بن طاهر بن يحيى بن ناصر بن أبي العزّ الحسينيّ الموسويّ الحائريّ أمًّا وأبًا، الإماميّ ملَّة ومذهبًا، الحسينيّ نسبًا و محتدًا، الكركيّ منشأً ومولدًا»[1].

فضلًا عن ذلك قد كُتب على ظهر كتابه (تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالس): «تأليف السيِّد الحسيب النسيب، العالم الفاضل الكامل، خلاصة البلغاء، زبدة الخطباء النصحاء الألِبَّاء، أُنموذج سلفه الطاهرين، وصفوة الفضلاء البارعين، فخر الملَّة والشريعة والدِّين، محمَّد بن أبي طالب»[2].

وقد هاجر السيِّد الحائريُّ من بلدته إلى العراق، فلم يجد فيها ما يلائم عقيدته ومبادئه، يقول: «فحثثت ركابي عن ديارهم، وأبعدت قراري من قرارهم، واستحليت البعد عن مزنهم، واستعذبت البروز عن برزتهم، وحططتُ رحلي ببلاد سيِّد الوصيِّين، وألقيت كلِّي على إمام المتَّقين، وجعلت مشهد قرَّة عينه أبي عبد الله موطني، وحضرته الشريفة في حياتي ومماتي مسكني ومدفني؛ لا أريد منها بدلاً، ولا أبغي عنها حِوَلاً، أزيِّن منابرها ببديع نظامي، وأسرُّ محاضرها بمعاني كلامي، وأقلِّد أجياد مدائحه بدرر لفظيّ»[3].

ولقد زار السيِّد الحائريُّ مرقد أمير المؤمنين عليه السلام في سنة (٩٢١ هـ)،

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٥.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ٤٤-٤٥

وكتب بعض قصائده، وصرَّح بأنّ عمره كان (٧٠) سنة، وألَّف السجع النفيس عام ٩٥٥هـ، وصرّح بأنه حصل على كتاب (تذكرة الفقهاء) للعلَّامة الحلِّيِّ سنة(٩٠٠هـ)، وهذا يدلّ دلالة واضحة أنَّ السيِّد الحائري قد ولد في القرن التاسع، وعاش إلى أواسط القرن العاشر، وقد استقرَّ في كربلاء حتَّى وفاته[١].

أمَّا كتاب تسلية المُجالِس وزينة المَجالس المسمَّى (مقتل الحسين عليه السلام)؛ فهو يُعَدُّ من المؤلَّفات المنفردة بمضمونها وأسلوبها، وهو الأثر الوحيد للسيِّد الحائريِّ الكركيِّ، وبتحقيق الشيخ فارس حسُّون كريم؛ وقد أوضح المؤلِّف مضمون كتابه في مقدّمته؛ إذْ يقول:«ثمَّ إنِّي بعد ذلك عثرت على كتاب لبعض فصحاء اللغة الفارسيَّة، وفرسان البلاغة... فاستخرت الله سبحانه أن أنسخَ على منواله في التصنيف والترتيب، وأقتدي بأفعاله في التأليف والتهذيب، وأزيِّن مجالس أهل الإيمان بمناقب سادتهم ومواليهم، وأهيِّج أحزان قلوب أهل العرفان من شيعتهم ومواليهم، وأُحلِّي أجياد اللسان العربي بدرر نظمي ونثري، وأجدِّد معاهد الأشجان بنواضح بدائع فكري، ورتَّبْتُه كترتيبه، وبوَّبْته كتبويبه، لكن لم أقصد ترجمة كلامه، ولا سلكت مسلكه في نثاره ونظامه، وجعلته عشرة مجالس، ولم أورد فيه من الأحاديث إلَّا ما صحَّحه علماؤنا، ورجَّحه أعلامُنا، ودوَّنوه في كتبهم، ونقلوه عن أئمَّتهم»[٢].

وقد قال المحقّق في مقدَّمة هذا الكتاب: «سِفرٌ كبير ثمين جُلُّه في مقتل الإمام الحسين بن عليٍّ عليهما السلام، وثواب إظهار الجزع لمصابه ومصاب أهل بيته، والبكاء لرزيَّتهم والجلوس لعزيَّتهم، وحمل سبايا رسول الله صلَّى الله عليه

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ١٧.

(٢) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٥١- ٥٢.

وآله وبناته وأحفاده إلى الشام»[1]؛ وما يوضّح ذلك قول المؤلّف في مقدّمة كتابه: « ثمَّ إنِّي بعد أن مَنَّ الله عليَّ بمجاورة سبط نبيِّه، وأهَّلني للإقامة في حضرة وليِّه وابن وليِّه، أطلق لساني بمدح رسوله المصطفى، ووليِّه المرتضى، وأهل بيتهما الأئمَّة النجباء... فصرت أحلِّي بذكرهم المنابر، وأزيِّن بشكرهم المحاضر، وأشنّف بمدحهم المسامع، وأشرِّف بوصفهم الجوامع، وأقمع هامات من ناواهم بمقامع نظمي ونثري»[2].

وإنَّ جهدَ السيِّد الحائريِّ الكركيِّ في هذا الكتاب هو سرد تاريخ أهل البيت عليهم السلام من الأحاديث والأخبار والروايات، وفي بداية كلِّ مجلس يلقي المؤلّف خطبة أدبيَّة بليغة المعنى والصياغة، وبعد ذلك يؤطِّرها بقصائد من شعره حول موضوعِ المجلس[3].

وعبْر تأمُّل موضوعات المجالس، يتبيَّن أنَّ المجالس الأربعة الأولى تتركَّز في تاريخ أهل البيت عليهم السلام وأحوالهم؛ فالسيِّد الحائريُّ يعبِّر عن معاناتهم بالنثر والتنسيق المنظَّم، فضلاً عن ذلك فإنَّ موضوعات قصائده التي ذكرها في كتابه تتمثَّل في مدح أهل البيت عليهم السلام ورثائهم؛ إذْ ينمازُ أسلوبه بالبلاغة والسلاسة والتنسيق الرائع، تنسيق القصائد وتنظيمها تبعاً لطبيعة الموضوع ومناسبته، مما يغري القارئ للدخول إلى عوالم النصِّ والتفاعل معه.

الشخصيَّة الإيجابيَّة في قصَّة النبيّ يوسف عليه السلام:

إنَّ شخصيَّة النبيّ يوسف عليه السلام هي من الشخصيَّات الإيجابيّة التي

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ١٨.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ٤٩.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٥٣-٥٩.

استطاعت أن تتمتَّع بوجود فعليٍّ مستقلٍّ عن الشخصيّات الأُخَر، وذلك بوصفها«تتمحور حولها الأحداث والسرد، والفكرة الرئيسة، التي تنسج حولها الحوادث»[1]، والتي تفاعلت مع الأحداث المتوالية تواليًا سببيًّا ومنطقيًّا بديناميَّتها وسلوكها وأفعالها المختلفة، أي إنَّها أسهمت بحضورها المنفرد والفعَّال في تتابع الأحداث وتناميها بصورة تصلُ بها إلى تمام المواقف ونهاية الحدثِ المحوريِّ في مشاهد زمانيَّة ومكانيَّة متباينة؛ إذْ يتجسَّد أثر إيجابيَّتها الواضح في هذه المشاهد المتباينة؛ لأنَّها تتكيف مع الزمن وتتفاعل معه استرجاعاً واستباقاً، فتمنحها معانيَ ودلالات تأويليَّة تثير الدهشة وتكسر أفقَ توقُّع القارئ، فلا تبرز له في صورة مشهديَّة واحدة بل تنكشف مكنوناتها وأفكارها وأحاسيسها وأهواؤها تدريجيًّا من إيجابيَّتها، وتأثيرها الفعَّال في تتابع الأحداث وتصاعدها أوَّلاً، واصطناع الحوار بنمطيه الداخلي المناجاة والخارجي وتلقِّيهما ثانياً.

ويستهلُّ الراوي الحائريُّ الكركيُّ قصَّة يوسف عليه السلام بحدث مركزيٍّ يخضع للبناء المتتابع في تسلسل الأحداث وانتظامها وذلك؛ لأنّ هذا الحدث يبدأ بتصوير المكيدة والمؤامرة التي صنعها أبناء يعقوب على نبيّ الله يوسف عليه السلام، فقد عزموا على قتله وإلقائه في الجبّ، وبعد ذلك تتطوّر الأحداث وتتنامى بقدوم القافلة وهي تدنو من البئر.

إذ تقول القصّة: «إنَّ يعقوب كان شديد الحبّ ليوسف، وكان يؤثره على سائر أولاده فحسدوه، ثمَّ رأى الرؤيا فصار حسدهم له أشدَّ. وقيل: إنّ يعقوب عليه السلام كان يرحمه وأخاه لصغرهما فاستثقلوا ذلك، ودبّروا في هلاكه كما حكى سبحانه عنهم في قوله: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: ١٢٦.

﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ سورةيوسف:٩، أي اطرحوه في أرض بعيدة عن أبيه فلا يهتدي إليه، ولمّا أقبلوا إلى أبيهم وسألوه أنْ يرسل يوسف معهم وأظهروا النصيحة والمحبَّة والشفقة على يوسف، ولمَّا همَّ يعقوب أنْ يبعثه معهم وحثَّهم على حفظه، وقال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ سورة يوسف: ١٣، وكانت أرضهم مذأبة، وكانت الذئاب ضارية في ذلك الوقت؛ وقيل: إنَّ يعقوب رأى في منامه كأنَّ يوسف قد شدَّ عليه عشرة أذؤب ليقتلوه، وإذا ذئب منها يحمي عنه، فكأنَّ الأرض انشقَّت فدخل فيها يوسف فلم يخرج إلا بعد ثلاثة أيام، فمن ثمَّ قال ذلك فلقَّنهم العِلَّة وكانوا لا يدرون، وروي عن النبيِّ صلى الله عليه وآله قال: لا تلقِّنوا الكذب فيكذبوا، فإنَّ بني يعقوب لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الإنسان حتَّى لقَّنهم أبوهم»[(١)].

لقد بنى الراوي هذا النصَّ القصصيَّ على شخصيَّة إيجابيَّة ثانويَّة جادَّة، وهي شخصيَّة النبيّ يعقوب عليه السلام؛ إذْ يصفها الراوي العليم وصفًا انتقائيًّا جماليًّا يوضِّح فيه مشاعرها وأفكارها، ويرويها بضمير الغائب الذي يوصف بأنَّه «وسيلة صالحة؛ لأنَّ السارد يتوارى وراءَها فيمرِّر ما يشاء من أفكار، وأيديولوجيَّات، وتعليمات، وتوجيهات، وآراء؛ دون أن يبدو تدخُّله صارخاً ولا مباشراً»[(٢)]؛ ليكشف عن أفكار هذه الشخصيَّة الإيجابيّة الثانويَّة شخصيَّة يعقوب عليه السلام، التي تمظهرت كشخصيَّة متألِّمة صابرة، ومؤمنة بقضاء الله وقدره، وأسهمت بصورة كبيرة على توالي الأحداث وتناميها سببيًّا ومنطقيًّا عبر انفعالاتها الوجدانيَّة المتوهِّجة بإحساس القلق والخوف على ولده النبيِّ يوسف عليه السلام من إخوته، الذين حاولوا التخلُّص منه والقضاء عليه، ويتَّضح

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٧٨.

(٢) في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد: ١٥٣.

ذلك بقوله: (إنَّ يعقوب كان شديد الحبِّ ليوسف، وكان يؤثره على سائر أولاده فحسدوه، ثمّ رأى الرؤيا فصار حسدهم له أشدَّ).

ومن هنا قد وُجِدَت الدوافع والبواعث لتتشكَّل الشخصيَّة الإيجابيَّة المحوريَّة شخصيَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام بتمام النصِّ القصصيِّ بأحداثه وتفاعل شخصيَّاته في مشهد زمكانيٍّ ديناميكيٍّ؛ إذ يعمد الراوي إلى توضيح خصائص شخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام وصفاتها عبر أقوال الشخصيَّات الأُخَر المتمثِّلة بإخوته (أبناء يعقوب) وأفعالهم، الذين ضمروا العداوة والحسد والغيرة التي توهَّجت في ذاتهم، وعزموا على وضع تخطيط منظَّم لقتل نبيِّ الله والقضاء عليه.

وتتوالى الأحداث في رسم صورة الشخصيَّة الإيجابيَّة لجعل بناء النصِّ القصصيِّ قائمًا على استهلال حدثيٍّ تصويريٍّ، وهو تخويف النبيِّ يعقوب عليه السلام من الخطر المحدق بيوسف عليه السلام من إخوته؛ لتنطلق الأحداث من هذا الاستهلال الحدثيّ البارع إلى تفكير إخوة يوسف بوسيلة للتخلّص منه وهلاكه، فالشخصيَّات الإيجابيَّة الثانويَّة لها أثر كبير في سير الأحداث وتصاعدها شيئًا فشيئًا؛ لتصل هذه الأحداث المتتابعة إلى المشهد الحواريِّ المؤثِّر الدائر بين النبيِّ يعقوب عليه السلام وأبنائه، بقوله: (ولمَّا أقبلوا إلى أبيهم وسألوه أن يرسل يوسف معهم وأظهروا النصيحة والمحبَّة والشفقة على يوسف، ولما همَّ يعقوب أن يبعثه معهم وحثَّهم على حفظه)؛ ليتمظهر عبر هذا الحوار المراودة والمؤامرة المخطَّطة للإيقاع بنبيِّ الله يوسف عليه السلام، وعدم إيهام النبيِّ يعقوب عليه السلام بمصداقيَّة أقوال أبنائه وأفعالهم.

إذ يبرز خوفه من أن يأكله الذئب، وهم عنه غافلون؛ أي إنَّه قدحَ في أذهانهم العذر الذي جاؤوا به لأبيهم بعد أنْ حاولوا التخلُّص من أخيهم والقضاء عليه.

(فإنَّ بني يعقوب لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الإنسان حتَّى لقَّنهم أبوهم)؛ ليتمَّ التركيز على هذه الشخصيَّات الثانويَّة الإيجابيَّة (أبناء يعقوب)؛ وذلك بوصف مشاعرها وفعلها وصراعها مع ذاتها ومع الآخر؛ لتتَّصف الأحداث المتوالية بالديناميَّة والحركة، حتَّى تصل إلى نهايتها بقرار يعقوب عليه السلام وجوابه بأن يبعث يوسف عليه السلام معهم، وحثَّهم على حمايته وحفظه.

وارتأينا دراسة الشخصيَّة الإيجابيّة شخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام على وفق المحاور الآتية:

أوَّلًا: الثبات والإصرار والصبر والمثابرة عليه من الحدث العنيف المؤثِّر الذي يواجه الشخصيَّة الإيجابيَّة.

إنَّ شخصيَّة يوسف عليه السلام بإيجابيَّتها وقوَّتها وصبرها وتحدِّيها للصعاب، قد مثَّلت وحدة إيجابيَّة «تتعايش فيها الإنسانيَّة وحبُّ الآخرين، والشجاعة، الفرديَّة والالتزام، والتفاؤل، النزعة المثاليَّة والنزعة الواقعيَّة؛ تتعايش كلُّ هذه المعايير في الإنسان لتعطي في النهاية، حصيلة إيجابيَّة في مجملها؛ إذا وجد هذا الإنسان في شخصٍ إيجابيٍّ»[1].

وما يمثِّل ذلك النصُّ القصصيُّ الآتي «ولمَّا ذهبوا به أخرجوه عن يعقوب مكرّماً، فلما وصلوا إلى الصحراء أظهروا له العداوة وجعلوا يضربونه وهو يستغيث بواحد واحد منهم فلا يغيثه، وكان يقول: يا أبتاه، فهمُّوا بقتله، فمنعهم يهوذا - وقيل: لاوي، فذهبوا به إلى الجبِّ، فجعلوا يدلُّونه فيه وهو يتعلَّق بشفيره، ثمّ نزعوا عنه قميصه وهو يقول: لا تفعلوا، ردّوا علي القميص أتوارى به، فيقولون: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يؤنسنك، فدلُّوه

(١) محاولة تحليل نفسية البطل العربي في التصوف والأنثروبولوجيا: ٩.

فـي البئر حتى إذا بلغ نصفها فألقوه إرادة أن يموت وكان في البئر ماء فسـقط فيـه، ثـمّ آوى إلى صخرة فيها فقام عليهـا، وكان يهوذا يأتيـه بالطعام. وقيل: وكّل الله به ملكاً يحرسه ويطعمه»[١].

فـي هـذا النصِّ القصصيِّ نجد الراوي يكشـف عن سـلوك أبنـاء يعقوب وأفعالهـم بأخيهم النبي يوسـف عليه السلام، والتي تتمثَّل هـذه الأفعال والمواقف المتأزِّمـة في إخفائهم العداوة والبغضاء لأخيهم، ومحاولتهم قتله والتخلُّص منـه بأيِّ وسـيلة كانـت؛ تحرِّكهم فـي ذلك الغيـرة التي تغلغلت فـي ذاتهم، وقرَّروا أنْ يأخذوه ويلقوه في بئر عميق من دون رحمة أو شفقة، (ولما ذهبوا به أخرجوه عـن يعقوب مكرَّمًا، فلمَّا وصلوا إلى الصحراء أظهروا له العداوة وجعلـوا يضربونـه وهو يسـتغيث بواحد واحد منهـم فلا يغيثـه)، فالحدث المحـوريُّ هو البئـر الذي يمثِّـل نقطة تحوُّل فـي تتابع الأحـداث وتناميها؛ إذْ يمثـل هـذا المكان (المرحلة الأولـى من حياة نبيِّ الله) مكانًـا معاديًا تفقد فيه الشـخصيَّة الإيجابيَّة شعورها بالاسـتقرار والألفة؛ نتيجة لباعث الخوف والقلق الذي ينتابها في ذلك المكان المظلم الذي لا حياة فيه.

يبـدو أنَّ الحـدث الجوهـريَّ في هذا النـصِّ القصصيِّ قد اتَّصـل اتصالًا وثيقًـا بالمشـهد المكانيِّ (البئـر)، فلابدَّ «للحـدث من إطار يشـمله ويحدِّد أبعاده ويكسـبه من المعقوليَّة ممَّا يجعله حدثـا قابلاً للوقوع على هذه الصفة أو تلـك»[٢]، وعليه فقد سـلَّط هـذا المكان أجواء نفسـيَّة معقَّـدة، وضغوطاً خارجيَّة تستمدُّ من صراع الشخصيَّة الإيجابيّة مع ذاتها من جهة، ومع المكان المعـادي (البئر) من جهة أخرى. ويتضح ذلك بقولـه: (يا أبتاه، فهمّوا بقتله،

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٧٩.

(٢) فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية): ٧.

فذهبـوا به إلى الجبّ، فجعلـوا يدلونه فيه وهو يتعلّق بشـفيره، ثمّ نزعوا عنه قميصـه)، ومن ثم ليمنح هذا المكان دلالات تأويليَّـة توضِّح معاني وأفكاراً مقصـودة يريـد مبدعها إيصالها بصـورة مشـهديَّة فعّالة إلى القـارئ؛ ليغريه بالدخـول إلى عوالم النـصّ القصصيّ ومركز تبئيره الحكائـيّ، الذي يتجلّى فيه حضور الشخصيّات، وحركتها وصراعها في الفضاء المكانيّ المتصاعدة فيـه الأحداث بصورة متسلسـلة ومنتظمة؛ لتصل إلى الحـوار الدرامي الدائر بين يوسـف وإخوته (وهو يقـول: لا تفعلوا، ردُّوا علـي القميص أتوارى به. فيقولون: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً يؤنسنَّك).

ومن ذلك يمكن القول: إن هذا الحوار قد شـكّل أداة تعبيريَّة دلاليَّة تسهم إسـهامًا واضحًا في الكشـف عـن موقف الشـخصيَّة الإيجابيّـة، وما يعتمل فـي أغوارها من أحاسـيس وانفعالات عاطفيَّـة، دالَّة على الحالة الشـعوريَّة والنفسـيَّة لها؛ ليؤدِّي الحوار بذلك أثرًا أساسيًّا في ديناميَّة الأحداث المتتابعة في مشـاهد زمانيَّة ومكانيَّة محدَّدة، فضلاً عن ذلك يعدُّ مكوِّناً تركيبيًّا ودلاليًّا من بنية النصِّ القصصيّ؛ إذ ألزم خطابًا تواصليًّا دلاليّاً تكون الغايات القصديَّة للتعبير عن مكنونات الشـخصيَّة الإيجابيَّة وأفكارهـا بصورة دراميَّة حواريَّة، توضِّح طبيعة علاقتها المتأزِّمة مع الشخصيَّات الأُخَر، التي تصارعها وتحاول القضاء عليها في مشهد مكانيٍّ مؤثِّر.

إنَّ الصبر والإصرار عليه سـمة أساسـيَّة ترمز إلى إيجابيّة الشخصيَّة وقوَّة يقينهـا بمبادئها وأهدافها. بل تظهـر إيجابيَّتها بصورة جليَّة في ملازمة الصبر، والانفـراد فـي المثابرة عليه من الحـدث العنيف الذي يواجه الشـخصيَّة في مشاهد مكانيَّة وزمانيَّة محدَّدة.

وما يمثِّل ذلك نجده في النصِّ القصصيِّ الآتي: «في كتاب النبوَّة، عن الحسن

بـن محبوب، عن الحسـن بن عمارة، عن مسـمع أبي سـيَّار، عن الصادق عليه السلام قال: لمّا ألقى إخوة يوسف يوسف في الجبِّ نزل عليه جبرئيل، وقال: يا غلام، مـن طرحك في الجـبّ؟ قال: إخوتي؛ لمنزلتي من أبي حسـدوني، ولذلك في الجـبِّ طرحونـي. فقال: أتحبُّ أن تخـرجَ من هذا الجبّ؟ فقـال: ذاك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ورُوِيَ أنَّ يوسف عليه السلام قال في الجب: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارحم ضعفي وقِلَّة حيلتي وصغري. قال مجاهد: أوحى الله إليـه وهو فـي الجبِّ ونبّاه وأَوحى إليه أن اكتم حالـك، واصبر على ما أصابك، فإنَّك ستخبر إخوتك بما فعلوا بك في وقت لا يعرفونك»[1].

يعتمد بناء المشهد السابق على شخصيَّة إيجابيَّة صابرة ألا وهي شخصيَّة النبيِّ يوسـف عليه السلام؛ فهي تحرّك الأحداث سـببيًّا ومنطقيًّا؛ إذ يسـتهل الراوي باسـتهلال حدثي يتضمن مسـتوى عاليـاً مـن الدينامية والدرامية؛ لاتصاله بالفعـل العنيـف وهو قتل أبناء يعقوب ليوسـف اتِّصالًا مباشـرًا، بقوله: (لمّا ألقى إخوة يوسـف يوسـف في الجـبّ نزل عليه جبرئيل وقـال: يا غلام، من طرحك في الجبّ؟ قال: إخوتي لمنزلتي من أبي حسدوني، ولذلك في الجبّ طرحوني)؛ لنكتشـف منذ البدايـة قوَّة الحدث وعنفه الذي واجه الشـخصيَّة الإيجابيّة، ومن ثمَّ يعكس هـذا الحدث الجوهريّ العنيف حوارًا دراميًّا دائرًا بيـن الملك جبرئيل والنبي يوسـف عليه السلام، وهو حوار اسـتفهاميٌّ اسـتنكاري يكشـف حالة الشخصيَّة النفسـيَّة والشـعوريَّة بإزاء الفعل العنيف الذي وقع عليهـا، ويتَّضح ذلـك بقوله: (فقال: أتحبُّ أن تخرج مـن هذا الجبّ؟ فقال: ذاك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب).

وهنـا تتجسَّـد الحالة النفسـيَّة والشـعوريَّة للشـخصيَّة الإيجابيَّـة نبيّ الله

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٨٠.

يوسف عليه السلام في حزنه وألمه، وهو في البئر ويناجي إخوته في أنْ ينقذوه من ذلك المكان المعادي المظلم، الذي زجُّوه فيه بكلّ عنفٍ وعدائيَّة، إلَّا أنَّهم أصرُّوا على موقفهم وعنادهم وعدم استجابتهم لصوت أخيهم ومناجاته، وتظهر الأبعاد النفسيَّة للشخصيَّة الإيجابيَّة يوسف عليه السلام في قوله: (قال في الجُّب: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارحم ضعفي وقلَّة حيلتي وصغري).

وتتركَّز صفة الأصالة والصبر والمثابرة لديه في مشهد وحي الله تعالى لنبيِّ الله بقوله: (واصبر على ما أصابك، فإنّك ستخبر إخوتك بما فعلوا بك في وقت لا يعرفونك). فقد ابتلى النبيُّ يوسف عليه السلام بكره إخوته وغيرتهم ومحاولتهم قتله والتخلُّص منه، وعليه تظهر قوَّة هذه الشخصيَّة وإيجابيّتها في مواجهة الحدث العنيف مواجهة تنمُّ عن أصالته وثباته في المكان المظلم (الجبِّ)، وتحكُّمه في انفعاله الشعوريِّ الوجدانيِّ؛ ليستسلم لأوامر الله سبحانه وتعالى، وهو في قمَّة الطاعة والصبر.

ويستمرُّ الحدثُ القصصيُّ التتابعيُّ؛ ليصل إلى المشهد الحواريِّ التصويريِّ بين يعقوب وأبنائه؛ إذ يحتلُّ الوصف أهميَّة كبيرة في النصِّ القصصيِّ؛ لأنّه يبرز سمات البناء النصِّيِّ وخصائصه بصورة تنسجم انسجامًا واضحًا مع الخطاب العام الذي يتبنَّاه النصُّ، فهو لا يسعى إلى سرد أحداث متتابعة، وإظهار وظائف الشخصيَّات وتحوُّلات في المسارات القصصية. ولكنَّه بعكس ذلك يروم بالكشف عن الدواخل والأعماق الإنسانيَّة في مكنونات النصِّ وخفاياه عبر اللغة على وفق علاقات محدَّدة وديناميكيَّة فعَّالة يلعبها التأمُّل الباطنيُّ وانفعالات الشخصيَّات وعتمات ذاتهم، وهم يتحوَّلون من حالة إلى حالة في المكان والزمان المحدَّدين[1].

(١) ينظر: الرواية العربية الجديدة، السرد وتشكّل القيم: ٢٥٢.

ويتَّضح ذلك في النصِّ القصصيّ الآتي: «ولمَّا فعلوا بيوسف ما فعلوا جاؤوا أباهم عشاء يبكون كما ذكر سبحانه. ليلبسوا على أبيهم، وإنَّما أظهروا البكاء ليوهموا أنَّهم صادقون... ولما سمع يعقوب بكاءهم وصياحهم فزعَ وقال: ما لكم؟ فقالوا: يَا أَبَانَا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ – على الأقدام ؛ وقيل: ننتصل ونترامى فننظر أيّ السهام أسبق ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ سورة يوسف:١٧؛ بمؤمن لنا أي مصدِّق،وأظهروا ليعقوب قميص يوسف ملطَّخاً بالدم، وقالوا: هذا دم يوسُف حين أكله الذئب؛ قيل: إنَّهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على القميص ولم يمزِّقوا الثوب، ولم يخطر ببالهم أنَّ الذئب إذا أكلَ إنسانًا يمزِّق ثوبَه؛ وقيل: إنَّ يعقوب قال: أروني القميص، فأروه إيّاه، فلما رآه صحيحاً قال: يا بنِيَّ، ما رأيت ذئبًا أحلم من هذا الذئب! أكلَ ابني ولم يخرق قميصه. وقيل: إنَّه لمَّا قال لهم يعقوب ذلك، قالوا: بل قتله اللصوص؛ فقال عليه السلام: فكيف قتلوه وتركوا قميصه وهم إليه أحوج من قَتْلِه؟ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ سورة يوسف(١٨)؛ (سولت لكم؛ أي زيّنت لكم)، أي صبري صبر جميل لا أشكو إلى الناس»[(١)].

لقد نفَّذ أبناء النبيِّ يعقوب عليه السلام مؤامراتهم العنيفة على نبيِّ الله يوسف عليه السلام ومن ثمّ ارتابوا من مواجهة أبيهم، وذلك من أنْ تتمظهر آثار فعلتهم ومكيدتهم بيوسف عليه السلام ويتجسَّد ذلك بقوله: (ولمَّا فعلوا بيوسف ما فعلوا جاؤوا أباهم عشاء يبكون؛ ليلبسوا على أبيهم، وإنَّما أظهروا البكاء ليوهموا أنَّهم صادقون)؛ ليصل السرد القصصيُّ التتابعيُّ إلى المشهد الحواريِّ التصويريِّ الدائر بين النبيِّ يعقوب عليه السلام وأبنائه، (ولمَّا سمع يعقوب بكاءَهم وصياحهم

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٨٠-٨١.

فزع وقال: ما لكم ؟)، فقد حمل هذا المشهد الحواريُّ صوراً ديناميَّة دلاليَّة تصوِّر أفعالَ أبناء يعقوب عليهم السلام، وأقوالهم التمويهيَّة تصويراً دراميًّا إغرائيًّا يدفع المتلقِّي إلى التوغُّل في عوالم النصِّ القصصيِّ، والتفاعل معه بشوقٍ ولهفةٍ.

ومن هنا تتصاعدُ الأحداثُ وتتنامى؛ لتوضِّح طبيعة علاقة الشخصيَّة الإيجابيَّة بالشخصيَّات الأخرى عبر المشاهد الحواريَّة الدراميَّة، التي تتنوع فيها الأصوات، وتتصاعد تبعاً لعدائيَّة الشخصيَّات وقرارها الصارم بقتل الشخصيَّة الإيجابيَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام والقضاء عليها من دون شفقة؛ وذلك؛ لأنَّ الإيجابيَّة في الشخصيَّة لا تأتي من دون عائق ومحرِّك للأحداث المتتابعة؛ إذ تمركزت الأحداث حول هذه الشخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام ومنحه الدافع الرئيس ليكون بهذا الأثر الفعَّال من الإيجابيَّة والقوَّة، التي جعلته يتفاعل مع الأحداث المتصاعدة؛ لتصلَ إلى ذروتها بقوَّة صبره وصموده أمام عنف إخوته وعزمهم على قتله من دون رحمة.

يبدو أنَّ المشاهد الحدثيَّة والحواريَّة معًا قد تجسَّدت تجسيدًا واضحًا لتتمسرح الأحداث المنتظمة سببيًّا ومنطقيًّا وتتقدَّم الشخصيَّات بصورة فاعلة ومؤثِّرة في إطار المشاهد التصويريَّة الحاضرة والعاكسة لأقوال الشخصيَّات المتناقضة وأفعالها المثيرة للغرابة والدهشة.

وما يمثّل ذلك النصَّ القصصيَّ الآتي: «ثمّ جاءت السيَّارة من قبل مِدْيَن يريدون مصرَ فأخطؤوا الطريق وانطلقوا يهيمون حتَّى نزلوا قريبًا من الجبِّ، وكان الجبُّ في قفرة بعيدة من العمران، وإنَّما هو للرعاة والمجتازة، وكان ماؤه ملحًا فعذُب، فبعثوا رجلاً يقال له مالك بن داغر؛ ليطلب الماء (فأَدْلَى دَلْوَهُ) فتعلّق يوسف عليه السلام بالدلو، فلما خرج فإذا هو بغلام أحسن ما يكون، فنادى أصحابه وقال: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ﴾ سورة يوسف: ١٩ من

أصحابهم لئلا يطلبوا منهم الشركة فيه، وكان إخوته بالقرب منهم فآتوهم، وقالوا: هذا عبد لنا أبقَ منَّا واختفى في هذا الجب، وقالوا له بالعبرانيّة: لئن قلت أنا أخوهم قتلناك، فتابعهم) على ذلك لئلَّا يقتلوه، وطلبوا من القافلة أن يشروه منهم، فأذعنوا لهم بذلك، فشروه منهم...، ولما عرض للبيع في سوق مصر تزايدوا فيه حتى بلغ ثمنه وزنه ورقاً ومسكاً وحريراً، فاشتراه العزيز بهذا الثمن، وقال لامرأته راعيل- ولقبها زليخا-: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ سورة يوسف:٢١»[1].

تعقب المشاهد الحواريّة السابقة مشهداً حدثيّاً تصويريّاً يتَّسم بالمفاجأة وكسر أفق توقُّع القارئ ألا وهو مشهد قدوم القافلة وهي تقترب من البئر؛ للاستراحة والارتواء من الماء؛ لتأتي اللحظة الحاسمة في حياة الشخصيَّة الإيجابيَّة نبيّ الله يوسف عليه السلام. فيلقي رجال القافلة حبلاً في البئر، حتّى يتَّضح لهم أنَّ غلاماً في البئر، فيفرحوا بذلك فرحاً شديداً، ويستقرّ رأيهم على بيعه في سوق مصر؛ ليشتريه رجلٌ من ملوك مصر وأعيانها، وبذلك تحوَّلت الشخصيَّة الإيجابيَّة من شخصيَّة حرَّة عاشت في كنف أبيها إلى شخصيَّة مملوكة من قبل مالكها عزيز مصر.

وتأسيسًا على ذلك يمكن القول: إنَّ الشخصيَّة الإيجابيَّة شخصيَّة يوسف عليه السلام صانعة للأحداث المتصاعدة تدريجيًّا ومتأثّرة فيها في الوقت نفسه؛ لأنَّها اعتمدت أصالتها وثباتها في مواجهة المكائد والمؤامرات للنيل منها والقضاء عليها، إلَّا أنَّها حدَّدت موقفها وسلوكها، بالإيمان الواضح بقضاء الله وقدره، والتحلِّي بالصبر والمثابرة عليه.

(١) ينظر: تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٨٢-٨٣.

ثانياً: التقوى والاستقامة بوصفها قوَّة تستمدُّ منها الشخصيَّة إيجابيَّتها.

إنَّ الاتِّصاف بالتقوى والاستقامة يظهر بصورة واضحة وجليَّة في شخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام؛ لتزيد هذه الصفات من إيجابيَّته؛ وذلك لأنَّه قد واجه الأحداث العنيفة والتحوُّلات الزمانيَّة والمكانيَّة بكلِّ ثبات واستقامة وتقوى، وكان يدعو الناس في كلِّ تحوُّل مكانيٍّ انتقاليٍّ إلى عبادة الله الواحد، وعليه فإنَّ شرود المحكيِّ السرديِّ في لحظات واصفة للفضاء المكانيّ والشخصيَّات ورؤاها للواقع القائم آنذاك«هو شيء يعزِّز الرغبة في الرصد الداخليِّ الانفعاليِّ للفواعل داخل العالم الروائيّ. لذلك لم يكن يهمُّ ما يروى من أحداث بقدر ما كان يهمُّ أثرها على انفعالات العوامل النصيَّة ونظرتها السياقيَّة إليها؛ كان الأهمّ في ذلك كلِّه هو رسم حدود التأثُّر وردود الأفعال والانطباعات وتمثُّلات العلاقات بين الشخوص ذاتها»[1].

وما يمثِّل ذلك النصّ القصصيّ الآتي: «ولمَّا أن استقرَّ في منزل أطفير راودته زوجته زليخا عن نفسه، ورامت منه أن يواقعها، وعلق قلبها بحبِّه لما رأت من جماله وهيبته؛ قيل: إنَّ يوسف عليه السلام كان إذا مشى في أزقَّة مصر أشرق نور وجهه على الحيطان كما يشرق نور انعكاس نور الشمس على الحائط إذا قابلت الماء، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ معناه همَّت هي بالفاحشة وهَمَّ يوسف بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال: هممت بفلان أي بضربه أو إيقاع مكروه به، فيكون معنى رؤية البرهان أنَّ الله سبحانه أراه برهانًا على أنَّه إنْ أقدم على ما همَّ به أهلكه أهلُها أو قتلوه، أو ادَّعت عليه المراودة على القبيح، وقذفته بأنَّه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه، فأخبر سبحانه أنَّه صرف عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل وظنُّ اقتراف

(١) الراوية العربية الجديدة، السرد وتشكّل القيم:٢٥٢.

الفاحشة به، ويكون التقدير: (لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) لفعل ذلك، ويؤيِّد أنه لم يهمّ بالفاحشة قوله سبحانه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ سورة يوسف: ٢٤ وقوله ذلك ليعلم أنِّي لم أخنه بالغيب. ثمَّ إنَّ يوسف لمّا رأى شدَّة إقبالها عليه والتزامها له ولّى فارًّا منها...»[١].

إنَّ إيجابيَّة الشخصيَّة في هذا النصِّ القصصيِّ تتأسَّس على تتابع الأحداث وتأزُّمها في فضاء مكانيٍّ محدَّد؛ إذ يستهلُّ الراوي عرض تفاصيل الأحداث وتقديمها؛ ليبرز الحدث الاستدراجيَّ الإغرائيَّ، وهو استقرار النبيِّ يوسف عليه السلام في بيت الملك (أطفير) عزيز مصر بقوله: (ولمّا أن استقرَّ في منزل أطفير راودته زوجته زليخا عن نفسه)، وهو بذلك يمهِّد لفعل المراودة؛ أي امرأة العزيز (زليخا) ظهرت شخصيَّة إيجابيَّة ثانويَّة، وقد أعجبت بيوسف عليه السلام أشدَّ الإعجاب؛ وذلك لأنَّه صاحب الجمال الباهر الملائكيِّ، (إذا مشى في أزقَّة مصر أشرق نور وجهه على الحيطان كما يشرق نور انعكاس نور الشمس على الحائط إذا قابلت الماء)؛ لتستجيب لعواطفها ومشاعرها، وتدبِّر له المكائد لإيقاعه ومراودته عن نفسه، فأبى وامتنع، فتآمرت عليه انتقاماً لذاتها وكبريائها، وزعمت بأنَّه هو الذي دعاها إليه وضربها لامتناعها منه.

وعليه قد حملت صورة (زليخا). دلالتَين تأويليَّتين: الأولى: التآمر وتدبير المكائد لإيقاع نبيِّ الله يوسف عليه السلام في حبِّها والاستجابة لمشاعرها وأهوائها، والثانية: الانتقام لكبريائها ولقوَّة شخصيَّتها؛ وذلك عندما امتنع نبيُّ الله عليه السلام عن رغباتها وغاياتها؛ امرأة عزيز مصر وهي شخصيَّة قويَّة اتَّصفت بجمالها وكبريائها، ولديها حضور مؤثِّر في صناعة الأحداث وتطوُّرها، فضلًا عن ذلك نستشفُّ عبر أفعالها وأقوالها شخصيَّة نبيّ الله يوسف عليه السلام المتَّصفة

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٨٤.

بقوّتها واستقامتها، فلا تتأثّر بمواقف (زليخا) وأفعالها، والتي حاولت أن يواقعها إلَّا أنَّه هَمَّ بضربها ودفعها عن نفسه، وامتنع عن ذلك امتناعًا شديدًا؛ إذْ تمثَّلت استقامة شخصيَّته قوَّة يستمدُّ منها إيجابيّته. بقوله: (إنَّ يوسف لمَّا رأى شدَّة إقبالها عليه والتزامها له ولَّى فارًّا منها)، فكان فعله وموقفه معها فعلًا يدلُّ على الاستقامة والتقوى. مرمّزًا بقوّة إيمانه وثباته على عقيدته ومنهجه؛ وذلك لأنَّ فعل التصدِّي للفاحشة والرذيلة التي أرادت (زليخا) إيقاع النبيِّ يوسف عليه السلام فيه قد جاء عن قرار حاسم ومبدأ، ينم عن قوَّة هذه الشخصيَّة واستقامتها وثباتها على عقيدتها، فامتنع عن المراودة على القبيح والفاحشة، ومن هنا تظهر إيجابيَّة هذه الشخصيَّة وتقواها، وإيمانها الواضح بدينها ومبادئها.

ويبدو أنَّ انطباعات الشخصيَّة الإيجابيَّة ومواقفها الحازمة لها الأثر الكبير في وقوع الأحداث المتنامية تناميًا دقيقًا ورشيقًا حدثًا بعد آخر؛ لتصل إلى مركزيَّة الحدث الجوهريِّ في امتناع يوسف عن رغبة (زليخا) لمراودته عن نفسه ودخوله على أثرها إلى السجن. وهذا يوضِّح إيجابيَّة هذه الشخصيَّة وقوَّتها؛ إذ تُقاس إيجابيَّتها بقدرتها الفائقة على صنع الحدث الجوهريِّ والتفاعل معه؛ أي فعل المراودة الذي لجأت إليه امرأة عزيز مصر الشخصيَّة التسلطيَّة العازمة على إيقاع النبيّ يوسف عليه السلام في شراكها ومراودته عن نفسه؛ لتحقيق غايتها القصديَّة، إلَّا أنَّ نبيَّ الله واجهها مواجهة فعَّالة تنمُّ عن استقامته على حدود الله، وقوّة يقينه بمبادئه وأهدافه.

وأبرز ما يمثِّل ذلك أيضًا الحدث الآتي: «ولمَّا أُدخل السجن أُدخل معه غلامان للملك أحدهما صاحبُ شرابِه، والآخر صاحبُ طعامِه، أُنهِي إلى الملك الأعظم أنَّهما يريدان أن يَسُمَّانه فأدخلهما إلى السجن، وكان

يوسف عليه السلام لما دخل السجن عرَّفهما أنَّه يعبِّر الرؤيا، فقال أحد العبدَيْن للآخر: هلمَّ حتى نجرِّبه، فقال أحدهما وهو الساقي: رأيت أصل كرمة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتها وعصرتها في كأس الملك وسقيته إيَّاها. وقال الآخر: إنِّي رأيت كأنَّ فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منها ... وكان يوسف قبل ذلك في السجن لم يدعهم إلى الله؛ لأنَّهم كانوا يعبدون الأصنام، فلمَّا رأى إقبالهم عليه وتوجُّههم إلى قبول قوله وحُسْن اعتقادهم فيه رجا منهم القبول، فأظهر أنّه نبيٌّ ودعاهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وروي أنَّ أهل السجن قالوا له: قد أحببناك حين رأيناك. فقال: لا تحبُّوني، فوالله ما أحبَّني أحد إلَّا دخل عليَّ من حبّه بلاء، أحبَّتني عمتي فنُسِبت إلى السرقة، وأحبَّني أبي فأُلقِيتُ في الجبِّ، وأحبّتني امرأة العزيز فأُلقِيتُ في السجن. ثمَّ أقبل عليهم بالدعاء إلى الله سبحانه ...ثمَّ عبَّر عليه السلام رؤياهما، فقال: أمَّا العناقيد الثلاثة فهي ثلاثة أيّام تبقى في السجن، ثمّ يخرجك الملك في اليوم الرابع وتعود إلى ما كنت عليه، وأمَّا الآخر فقال له: أنت تُصْلَب وتأكل الطيرُ من رأسك...»[1].

ففي النصِّ القصصيِّ السابق توصف شخصيَّة يوسف عليه السلام بأنّها شخصيَّة إيجابيّة قادرة على تحدِّي الصعاب ومواجهتها باستقامتها وثباتها على عقيدتها، وقد أسهمت إسهاماً واضحاً في توجيه الأحداث وتناميها. وتفسير تحوُّل السلوكيَّات والمواقف فضلاً عن ذلك قد علَّلت التحوُّل الفضائيَّ (دخول السجن) الذي خضعت له، وقد مثل هذا التحوّل نقطةً مهمّة في حياة هذه الشخصيَّة الإيجابيّة؛ لأنَّه قد جسد البلاء والمصائب التي حلّ بها عبر إغرائه بالفحش والرذيلة تجسيدًا تصويريًّا بارعًا؛ إذ يعمد الراوي بأسلوب

(١) ينظر: تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٨٨-٨٩.

السرد الموضوعيِّ إلى الوصف المكانيِّ (السجن)، الذي تصاحبه طبائع الشخصيَّات وأفكارها وتكوينها على صعيد الأحداث الاستباقيَّة؛ لتسهم بشكل واضح في تمثيل تجربة الشخصيَّة الإيجابيَّة النبي يوسف عليه السلام المتَّصلة بالواقع المعقَّد الذي فرضته عليها استقامتها وقوَّة يقينها.

ومن ذلك قد تمثِّل واقع تحوُّل مصير الشخصيَّة الإيجابيَّة من حياة العزِّ والرفاهيَّة في قصر الملك إلى غياهب السجن وعدائيَّة شخصيّاته؛ لتتمظهر هذه الشخصيَّة بصورتها الواقعيَّة المنفتحة على الحياة؛ ولتواجه واقع السجن بكلِّ قوَّة وعزيمة واستقامة؛ لأنَّها شخصيَّة مؤمنة متيقِّنة بوحدانيّة الله تعالى وعظمته، وإيجابيَّتها تأتي من استقلاليَّتها وتحرُّرها في أفكارها وتخطيطها المستقبليِّ المنظَّم؛ وذلك عبر استغلال قدراتها ويقينها بقضاء الله وقدره من جانب، وتحرُّكها بإيجابيّة وبصيرة؛ لتحقيق غاياتها المتمثِّلة بمواجهة المواقف والأحداث المتأزِّمة بكلِّ فاعليَّة واستقامة من جانب آخر.

وأبعاد الفضاء المكانيِّ السجن ومحنته لم تزعزع ثقة يوسف عليه السلام بربِّه وإيمانه القوي به، فالغاية القصديَّة من حضوره الفعليِّ في غياهب السجن هي هداية المسجونين إلى عبادة الله الواحد القادر. فضلاً عن ذلك اتِّصاف النبيِّ يوسف عليه السلام بالتقوى والاستقامة. واكتشاف ظلم السلطة وطغيانها التي تدفعها رغباتها الدنيويَّة وغاياتها القصديَّة إلى إلقاء الأبرياء في غياهب السجون من دون رادع، أو الاعتراض على حكمها ونفوذها، ومن هنا قد نشأت علاقة قويَّة بين نبيِّ الله يوسف عليه السلام والمسجونين، بقوله: (إنَّ أهل السجن قالوا له: قد أحببناك حين رأيناك. فقال: لا تحبُّوني، فوالله ما أحبَّني أحد إلا دخل عليَّ من حبِّه بلاء).

أي إنَّ الشخصيَّة الإيجابيّة قد أثَّرت في الشخصيَّات الأخرى بأفكارها

واستقامتها وقوَّة يقينها؛ لتحقّق بذلك غايتها القصديَّة، ألا وهي إنقاذ المسجونين من عبادة الأوثان، وإرشادهم إلى سبيل الحقِّ والإيمان؛ إذ استطاع أن يواجه الأحداث ويصارع الشخصيَّات بقوَّة شخصيَّته وانفرادها بالتفكير العقلانيِّ، والقول البليغ المهيِّج للمشاعر والأحاسيس، فقد أمرهم بعبادة الله وطاعته بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لتبرز إيجابيَّة شخصيَّته باستقامته ومواجهة المسجونين، وجهلهم وضلالتهم بكلِّ قوَّة وإيجابيَّة.

واستنادًا إلى ذلك يمكن القول: إنَّ إيجابيَّة شخصيَّة يوسف النبيِّ عليه السلام، وتفاعلها مع الأحداث المتتابعة. قد تمظهرت في تحمُّل المسؤوليَّة وتفهُّمها واستيعابها للأحداث، وسعيها وتناميها بفعاليَّة وإيجابيَّة واضحة، فقد تمكَّنت من إرشاد الآخر وتوجيهه في ضوء مبادئ الدِّين وتعاليمه، فضلًا عن ذلك إنقاذهم من الجهل والضلالة إلى دِين الله القيّم والإيمان بوحدانيَّته وعظمته.

ثالثاً: الدور القياديّ الفعّال والقدرة على مواجهة الأحداث المتنامية والتفاعل معها.

تُعرَّف القيادة بأنّها: «سمة من سمات الشخصيَّة يتميَّز بها القادة أينما وُجِدوا... فالقيادة ظاهرة اجتماعيَّة تفرض تأثيرها على الجماعة التي يظهر بينها القائد الذي يقوِّم الجماعة ويسير بها ومعها نحو تحقيق الأهداف التي يؤمنون بها، ويسعون إلى تحقيقها، لذا فإنَّنا نجدُ أنَّ الجماعة تلتفُّ حول القائد الذي يقودهم ويمنحونه ثقتَهم و تأييدهم ما دام القائد يسعى إلى تلبية احتياجاتهم، وبمقدوره القيام بذلك على الرغم من اختلاف أنواعها، سواء كانت هذه الاحتياجات ماديَّة أو نفسيَّة أو اجتماعيَّة أو معنويَّة.»[1]. ومن هنا تمظهرت الشخصيَّة الإيجابيَّة

(١) الشخصية القيادية: ٥٩.

للنبي يوسف عليه السلام بأنّها: شخصيَّة قياديَّة منظَّمة قادرة على مواجهة الأحداث المتنامية سببيًّا ومنطقيًّا مواجهة فعَّالة تنمُّ عن إيجابيَّتها وقوَّتها.

وما يمثّل ذلك النصُّ القصصيُّ الآتي: «ثمَّ لمَّا أذِنَ الله بالفرج رأى الملك الرؤيا التي هالته ... وكان جهلهم سبب نجاة يوسف عليه السلام؛ لأنَّ الساقي تذكَّر حديث يوسف فجثا بين يدي الملك، فقال: أيُّها الملك إنِّي قصصتُ أنا وصاحب الطعام على رجل في السجن منامين فخبَّرنا بتأويلهما، وصدق في جميع ما وصف، فإن أذنت مضيت إليه وأتيتك بتفسير رؤياك، فأذِن به الملك، فأتى يوسف في السجن، فقال: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [سورة يوسف:٤٦] إلى آخره لعلّي أرجع إلى الملك والعلماء الذين جمعهم لتعبير الرؤيا فعجزوا عنها، فيعرفون فضلك، ويخرجونك من السجن. فقال يوسف في جوابه: أمَّا السبع بقرات السمان والسبع العجاف والسبع السنابل الخضر والسبع اليابسات فإنّهنّ سبع سنين مخصِبات يتبعهنَّ سبع سنين مجدبات، فادأبوا في الزراعة في تلك السنين المخصِبة بجدٍّ واجتهاد، وكلّ ما تحصدونه ذروه في سنبله بغير دوس ولا تذرية ... وإنما أمرهم بذلك ليكون أبقى وأبعد من الفساد؛ لأنَّ السنبل إذا تُرك بحاله لا يقع فيه السوس ولا يهلك وإنْ بقي مدّة من الزمان، وإذا صفِّي أسرع إليه الفساد،... وأضاف الأكل إلى السنين لأنَّ الأكل يقع فيها أكثر. وروي أنَّ يوسف عليه السلام كان يقرِّب زاد اثنين إلى واحد فيأكل نصفه فيشبع ويترك الباقي، فلما كان أوَّل السنين المجدبة قرب طعام اثنين إلى واحد فأكله، فقال: هذا أوَّلُ السنين الشداد، وكانت السبع سنين المخصبات كثرت فيها الأمطار وفاض ماء النيل، فلمَّا انقضَت أمسك الله المطرَ ولم يوفِ النيل فوقع القحطُ

وكان ما قضاه الله سبحانه»[١].

إنَّ إيجابيّة شخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام وقيادتها للأحداث جاءت من غياهب السجن، الذي جعل في داخلها نوعًا من التحدِّي وعدم الاستسلام، عبر إيمانها بحكمة الله وعظمته؛ لذلك تنماز بقدرتها الفائقة على التأثير في صناعة الأحداث المتتابعة، واتِّخاذ المواقف الإيجابيَّة في انفعالاتها ونوازعها الوجدانيَّة تجاه الشخصيَّات الأُخَر التي تصاحبها في السجن، ومن ثمَّ يأتي المشهد الحواريُّ الذي له الأثر الفعَّال في التحوُّل المكانيِّ، ألا وهو تأويل النبيِّ يوسف عليه السلام لرؤيا الملك الذي عجز العلماء عن تفسيرها، ويتَّضح هذا بقوله: (لعلِّي أرجع إلى الملك والعلماء الذين جمعهم لتعبير الرؤيا فعجزوا عنها، فيعرفون فضلك، ويخرجونك من السجن).

ومن هنا تبرز شخصيَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام بأنَّها: شخصيَّة قياديَّة منظَّمة على مواجهة الأحداث وتطوُّرها شيئاً فشيئاً. فقد عزم على تأويل رؤية الملك التي أخفق السحرة في تفسيرها وتأويلها، وظهرت قيادته تبعاً لإيجابيَّة شخصيَّته؛ وذلك عبر الإتيان بالمعجزات والتأويل بدلالات ومعانٍ تأويليَّة، رامزة إلى أحداث استباقيَّة مصيريَّة ستقع على أهل مصر، وتُحدِث تحوُّلات مفاجئة تتَّصل اتِّصالًا مباشرًا بقدوم حدثٍ جوهريٍّ ألا وهو القحط والمجاعة على أهل مصر، ومن ثمَّ تواجه هذه الشخصيَّة الأحداث الاستباقيَّة مواجهة فعَّالة تنمُّ عن إيجابيَّتها وقدرتها على مجابهة الخطر المحدق بمصر وأهلها والتصدِّي له؛ وذلك عبر دبلجة أساليب وطرائق تجاوزها بكلِّ استعداد وحسن تدبير.

ويتمثّل ذلك بقول نبيّ الله يوسف عليه السلام في جوابه لتفسير الرؤيا وتأويلها:

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٩٢-٩٣.

(أمّا السبع بقرات السمان والسبع العجاف والسبع السنابل الخضر والسبع اليابسات فإنّهنّ سبع سنين مخصبات يتبعهنّ سبع سنين مجدبات)، وعليه فإنّ الشخصيَّة الإيجابيّة للنبيّ يوسف عليه السلام قد انمازت بتناميها وقوَّة شخصيَّتها وقيادتها للأحداث المتوالية على وفق منطق السببيَّة، والتفاعل معها بكل حزم وإيجابيَّة؛ لأنَّ سمة القياديَّة في هذه الشخصيَّة الإيجابيَّة تتمظهر بقوّة تأثيرها في أهل مصر على وفق سياستها الحكيمة، وقدرتها الفائقة على إيجاد السبُّل والحلول للتصدِّي للخطر المجابه لمصر وأهلها، ويتَّضح هذا بقوله: (فادأبوا في الزراعة في تلك السنين المخصبة بجدٍّ واجتهاد، وكلَّ ما تحصدونه ذروه في سنبُله بغير دوس ولا تذرية، وإنّما أمرهم بذلك ليكون أبقى وأبعد من الفساد).

وتأسيسًا على ذلك يمكن القول: إنَّ الشخصيَّة القياديَّة المتمثِّلة بشخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام، قد أسهمت إسهاماً واضحاً في بنائيَّة النصِّ القصصيِّ وتنامي أحداثه. وذلك بالتركيز على التباين المكانيِّ، الذي اتصل بمرحلَتَين ديناميَّتَين متَّصلتَين اتصالًا مباشرًا بالزمن المتوازي؛ المرحلة الأولى: مرحلة السجن؛ أي دخول النبي يوسف عليه السلام إلى السجن ظلمًا وبهتانًا، والمرحلة الثانية: خروج النبيِّ يوسف عليه السلام من السجن بعد تأويله لرؤيا الملك وتفسيرها؛ ليبدأ زمن التخطيط المنظَّم والقيادة الفعَّالة؛ لإنقاذ أهل مصر من المجاعة المنتظرة التي فسَّرت بصورة استباقيَّة عبر تأويل النبيِّ يوسف عليه السلام لرؤيا الملك.

وتتجسَّد إيجابيَّة شخصيَّة النبيِّ يوسف عليه السلام وقيادتها للأحداث المتتابعة عبر المشاهد الحواريَّة والوصفيّة معاً، ويمثّل ذلك النصُّ القصصيّ الآتي: «وقيل: إنَّ الملك لمّا أراد توليته دعاه فتوَّجه وردَّاه وقلَّده

سيفه، وأمر بأن يوضع له سرير من ذهب مكلَّل بالدرِّ والياقوت، ويضرب عليه كلَّة من استبرق، وأمره أن يخرج متوَّجًا؛ لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء وجهه، فانطلق فجلس على السرير، ودانت له الملوك، فعدل بين الناس فأحبَّه الرجال والنساء، وقال الناس: ما سمعنا ولا رأينا بملك أعطاه الله ما أعطى هذا الملك حكمًا وعلمًا. ثمَّ قال يوسف للملك: ما ترى فيما خوَّلني ربِّي من ملك مصر وأهلها؟ أشِرْ عليّ برأيك فإنّي لم أصلحهم لأفسدهم، ولم أنجِّهم من البلاء لأكون بلاء عليهم، ولكنَّ الله تعالى أنجاهم على يدي؛ قال له الملك: الرأي رأيك. قال يوسف: إنِّي أشهد الله وأشهدك أيُّها الملك أنِّي قد أعتقت أهل مصر كلَّهم، ورددْت عليهم أموالهم وعبيدهم، ورددْت عليك أيُّها الملك خاتمك وسريرك وتاجك على أنْ لا تسير وأنْ لا تستولي ولا تحكم إلَّا بحكمي. قال له الملك: إنَّ ذلك زيني وفخري أنْ لا أسيرَ إلَّا بسيرتك، ولا أحكم إلا بحكمك، ولولاك لما قويت عليه، ولقد جعلت سلطاني عزيزًا ما يرام، وأنا أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأنَّك رسول الله، فأقم على ما ولَّيتك إنَّك لدينا مكين أمين، وكان يوسف لا يمتلئ شبعاً من الطعام في الأيّام المجدبة؛ فقيل له: أتجوع وفي يدك خزائن الأرض؟ قال عليه السلام: أخاف أنْ أشبع فأنسى الجياع»[1].

إذ تشتغل صورة هذه الشخصيَّة النبيّ يوسف عليه السلام اشتغالًا وصفيًّا قياديًّا يتجاوز الدلالة القصصيَّة؛ لتخليد الشخصيَّة الإيجابيَّة في المشهد المكانيِّ مراوحة في ذلك بين الوصف الشخوصيِّ الانتقائيِّ والأحداث الاستباقيَّة المدهشة، وكسر أفق توقُّع القارئ، بوصفهما المحورين اللذين

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ٩٨-٩٩.

تتَّضح عبرهما أبعاد الشخصيَّة الإيجابيَّة وديناميَّتها، ويتبيَّن ذلك بقوله: (وأمره أن يخرج متوَّجًا؛ لونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء وجهه، فانطلق فجلس على السرير، ودانت له الملوك، فعدل بين الناس فأحبَّه الرجال والنساء)، فهذه الشخصيَّة الإيجابيَّة تتكيَّف مع الواقع وتستوعبه، وذلك بصنع الأحداث الاستباقيَّة والتفاعل معها في مواقفها الإيجابيَّة وسلوكها الحكيم. (قال الناس: ما سمعنا ولا رأينا بملك أعطاه الله ما أعطى هذا الملك حكمًا وعلمًا).

ومن هذا الوصف الشخوصيِّ الانتقائيِّ تتمثَّل بتركيز عالٍ صورة الشخصيَّة الإيجابيَّة، وإظهار جوهرها بأقوالها وأفعالها وطبيعة علاقتها مع الشخصيَّات الأُخر، ممّا يغري المتلقِّي بمتابعة التحوُّلات المفاجئة، التي شهدتها هذه الشخصيَّة انطلاقاً من الحوار القصصيِّ الفعَّال الدائر بين ملك مصر والنبيِّ يوسف عليه السلام؛ ليشيع هذا الحوار فعاليّة المشاهد التي تجسِّد قوَّة حضور الشخصيَّة وإيجابيَّتها الواضحة في مواجهة الأحداث الاستباقيَّة والعمل بإخلاص ومسؤوليَّة لإنقاذ مصر وأهلها من الهلاك والمجاعة المنتظرة، وعليه فهذه الشخصيَّة تقود الأحداث المتتابعة وتوجُّهها بمفردها.

وهذه الفعاليَّة في توجيه الأحداث تزيد من إيجابيَّتها، التي تدفع أهل مصر لتجاوز الخطر المحدق بهم. وذلك عبر التنظيم المخطّط، وبناء الذات بوساطة الجدِّ والإتقان، والعمل الدؤوب المتواصل، والمضيِّ إلى الأمام نحو تحقيق هذه الأهداف والغايات بكلِّ حكمة وتخطيط مسبق، ينمُّ عن شخصيَّة منفردة بتفكيرها ومتميِّزة بإيجابيَّتها في التعامل مع الآخر وقيادته والتأثير فيه؛ إذ قيلَ لنبي الله يوسف عليه السلام: (أتجوع وفي يدك خزائن الأرض؟

قال عليه السلام: أخاف أنْ أشبع فأنسى الجياع)، ومن هنا يظهرُ الموقف القياديُّ المنسجم بأبعاده الإنسانيَّة المتعددة مع انطباعات الشخصيَّة الإيجابيَّة وحالتها الشعوريّة؛ لأنّ الغاية القصديَّة من دلالات النصِّ القصصيّ ورموزه التأويليَّة هي: إبراز قيادة الشخصيَّة وقوَّة إيجابيّتها في مواجهة الأحداث المتصاعدة من جهة، وتمثيل العلاقة بين الشخصيَّة الإيجابيّة والأحداث المتفاعلة داخل بنية النصِّ القصصيِّ من جهة أخرى.

ويستمرُّ السرد القصصيُّ للمشاهد الحواريَّة والوصفيَّة في زمان ومكان محدَّدين، والتي توضّح قيادة شخصيَّة النبي يوسف عليه السلام للأحداث المتتابعة والتأثير فيها. وأبرز ما يمثِّل ذلك النصُّ القصصيُّ الآتي: «فلما دنا يعقوب من مصر تلقَّاه يوسف في الجند وأهل مصر. فقال يعقوب: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك يوسف، ثمَّ تلاقيا على يوم من مصر، فلمّا دنا كلُّ واحد من صاحبه بدأ يعقوب بالسلام، فقال: السلام عليك يا مذهب الأحزان. ثمَّ إنَّ يوسف اعتنق أباه وبكى، ثمَّ دخل منزله واكتحل وادَّهن، ولبس ثياب العزِّ والملك، فلما رأوه سجدوا له جميعاً إعظاماً له، وشكراً لله، ولم يكن يوسف في تلك المدَّة يدَّهن، ولا يكتحل، ولا يتطيّب، حتَّى جمع الله بينه وبين أبيه وإخوته. فلما رأوه (وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً)، وكانت تحيَّة الناس. في ذلك الزمان - بعضهم لبعض يومئذ السجود، والانحناء، والتكفير، ولم يكونوا نهوا عن السجود لغير الله في شريعتهم، وأعطى الله تعالى هذه الأمَّة السلام، وهو تحيّة أهل الجنة. وَقَالَ يوسف: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حقا﴾ سورة يوسف ١٠٠ في اليقظة»[1].

يتمظهر الحدث الجوهريُّ الديناميُّ، وهو قدوم النبيّ يعقوب عليه السلام

(١) تسلية المُجَالِس وزينة المَجَالِس: ١/ ١٢٠-١٢١.

إلـى مصر بصورة واضحة بوسـاطة حركة الشـخصيَّة الإيجابيّة، وموقفها الدراميِّ الفعَّال في مكنونـات النصِّ القصصيِّ ودلالاته التأويليَّة، ويرتبط علـى وفق منطقة السـببيَّة مع الأحداث المتتابعة في فضـاء مكانيٍّ وزمانيٍّ مؤثِّر، (فلمّا دنا يعقوب من مصر تلقَّاه يوسف في الجند وأهل مصر. فقال يعقـوب: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟ قال: لا، هذا ابنك يوسـف)، وعليه فـإنَّ العرض القصصيَّ للحـوار الدائر بين يعقـوب عليه السلام ويهوذا، يتضمَّن مسـتوى عالياً من التكثيف والإيحاء الدلالي في الكشف عن الشخصيَّات الإيجابيَّة المتزامنة تزامنًا دقيقًـا مع حدوث الوقائع والأحداث بجزئيَّاتها، وكان اسـتهلال ذلك باقتراب النبيِّ يعقـوب عليه السلام من مصر، ورؤيته لابنه يوسف عليه السلام.

لتتمثَـل لحظات التأثير والتشـويق في المشـهد الدرامـيِّ التصويريِّ ذات تشـكيل ديناميٍّ مؤثِّر، وقائم على الموقف العاطفيِّ والشـعوريِّ، والمحاورة الشـائقة بين الأب المتألِّم بلوعة الفـراق، وابنه المنتظر رؤيتـه، (بدأ يعقوب بالسـلام، فقال: السـلام عليك يا مُذْهِـب الأحزان، ثمَّ إنَّ يوسـف اعتنق أباه وبكـى)؛ ليكشـف هـذا الحوار الدرامـيُّ عما يعتمـل في أعماق الشـخصيَّة الإيجابيّة من شـحنات شعوريَّة دالة على حالتها النفسيَّة المتأزِّمة في لحظات اللقاء بعد الفراق ولوعة الانتظار.

ويعقـب هـذه المشـاهد التصويريـة المؤثّـرة وصـف انتقائـيٌّ تصويريٌّ للشـخصيَّة الإيجابيَّة نبيِّ الله يوسـف عليه السلام؛ ليجعلها أكثر تشخيصًا وحضورًا فعَّـالًا. بقولـه: (ثمَّ دخل منزلـه واكتحل وادَّهن، ولبس ثيـاب العزِّ والملك، فلمـا رأوه سـجدوا لـه جميعًا إعظامًـا له، وشـكراً لله)، وعبر هـذا الوصف الشخوصيِّ البارع قد تحقَّق مبدأ التشويق والإغراء المعتمد اعتمادًا كلّيًّا على

وصف انتقائيٍّ للشخصيَّة الإيجابيَّة من صميم الواقع؛ وذلك لأنَّها تنتسب إلى مرجعيَّات دينيَّة وتاريخيَّة واجتماعيَّة، والتي أسـهمت إسهامًا واضحًا وكبيرًا في خلق مواقف إنسـانيَّة فعَّالة ظلَّت خالدةً في الذاكرة الجماعيَّة، ممَّا أحدث شـعورًا صادقًـا بواقعيَّتها ووجودهـا الحقيقيِّ، فضلًا عن ذلـك قد انفرد هذا الوصفُ الشـخوصيُّ الانتقائيُّ بوظيفته الإغرائيّة التأثيريّة، التي تقود المتلقِّي إلى عوالم النصِّ القصصيّ ودلالاته الإيحائيَّة ورموزه التأويليَّة.

الخاتمة

بعد الانتهاء من دراسة سرديَّة الشخصيَّة الإيجابيَّة في كتاب (تسلية المجالس وزينة المجالس) للحائريِّ الكركيِّ، قصّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام اختياراً توصَّل البحث إلى جملة من النتائج الآتية:

١. إنَّ الشخصيَّة الإيجابيّة المتمثِّلة بشخصيَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام قد انمازت بعدّها مرتكزاً للأحداث، أو محوراً لاهتمام الشخصيَّات الأخرى عبر النصِّ القصصيِّ، فتكون ذات قدرة على التأثير، وفعاليَّة كبيرة في الأحداث المتنامية تناميًا متتابعًا على وفق منطق السببيَّة، فتتطوَّر من حدث إلى آخر، هادفة بذلك إلى تغيير الواقع القائم آنذاك بشتَّى الطرائق والأساليب، بما لديها من قوَّة إرادة وعلاقة ديناميَّة وثيقة مع ذاتها ومع الآخر، الذي تحاول تغييره أو التأثير فيه، وهي بذلك تتَّسم بأبعاد ذاتيَّة شعوريَّة وانفعالات وجدانيَّة، وتنفرد بديناميَّتها على إثارة المفاجأة، وكسر أفق توقُّع القارئ في التحوُّلات المكانيَّة والزمانيَّة التي خضعت لها ومزامنتها بصورة واضحة.

٢. إنّ المشاهد الحواريَّة والوصفيَّة معًا قد وصفت بأنَّها أداة تعبيريَّة تسهم إسهامًا واضحًا في الكشف عن مواقف الشخصيَّة الإيجابيَّة وأفعالها المختلفة، وما يعتمل في أغوارها من انفعالات وأحاسيس، لها الأثر الواضح في ديناميَّة الأحداث المتتابعة في زمان ومكان محدَّدَين، زد على ذلك تبيِّن طبيعة علاقتها المتأزِّمة مع بعض الشخصيَّات الأُخَر، التي تصارعها وتحاول القضاء عليها عبر الأحداث العنيفة في التحوُّلات

المكانيَّة التي شهدتها هذه الشخصيَّة؛ لأنَّ الهدف الرئيس من رموز النصِّ القصصيِّ ودلالاته التأويليَّة هو إظهار إيجابيَّة الشخصيَّة وقوّة قيادتها في مواجهة الأحداث المتتابعة من جانب، وتمثيل العلاقة بين الشخصيَّة الإيجابيَّة والشخصيَّات الأخرى داخل بنية النصّ القصصيِّ من جهة أخرى.

٣. إنَّ شخصيَّة يوسف عليه السلام بقوَّتها وصبرها وتحدِّيها للواقع المؤلم القائم آنذاك، وبتجاوزها هذا الواقع قد جسَّدت وحدةً إيجابيَّة بكلِّ تجلِّياتها وصورها الإنسانيَّة، القيادة والشجاعة وحبِّ الآخرين، والتفاؤل والتعايش مع الأحداث العنيفة والمؤلمة ومقاومتها بإيجابيَّتها وقوَّة يقينها، وإيمانها بوحدانيَّة الله وحكمته، ومن ذلك تباينت المحاور التي توضِّح إيجابيَّة شخصيَّة نبيِّ الله يوسف عليه السلام وقوَّتها، وهي: الثبات والإصرار والصبر والمثابرة، على الرغم من الحدث العنيف المؤثِّر الذي يواجه الشخصيَّة الإيجابيَّة في صراعها مع الشخصيَّات الأُخَر في مشاهد زمانيَّة ومكانيَّة محدَّدة، وأيضًا التقوى والاستقامة بوصفها قوَّةً تستمدُّ منهما الشخصيَّة قوَّتها وإيجابيَّتها في تفاعلها مع الأحداث بصورة متتابعةٍ، وكذلك الدور القياديُّ الفعَّال والقدرة على مواجهة الأحداث المتنامية سببيًّا ومنطقيًّا والتفاعل معها في مكان وزمان محدَّدَين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أركان القصة، فورستر، تر: كمال عياد جاد، دار الكرنك، للنشر والطبع والتوزيع، القاهرة: ١٩٦٠م.

٢. بناء الرواية، دراسة في الرواية المصرية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢م.

٣. التحليل السيميائي والخطاب، نعيمة سعدية، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ٢٠١٦م.

٤. تسلية المُجالِس وزينة المَجالِس، السيِّد محمَّد بن أبي طالب الحسينيّ الكركيّ الحائريّ، تح، فارس حسون كريم، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، إيران– قم المقدّسة، ط١، ١٤١٨هـ.

٥. دراسات في الواقعية، جورج لوكاش، تر، نايف بلّوز، المؤسسة العالمية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥م.

٦. الراوية العربية الجديدة، السرد وتشكّل القيم، إبراهيم الحجري، الناشر للدراسات والنشر والتوزيع، سورية – دمشق، ط١، ٢٠١٤م.

٧. سرد الأمثال، دراسة في البنية السرديّة لكتب الأمثال العربية مع عناية بكتاب المفضل بن محمَّد الضبي، أمثال العرب، لؤي حمزة عباس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.

٨. السرد في مقامات الهمذاني، أيمن بكر، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

٩. سيميولوجية الشخصيات الروائية، فيليب هامون، تر: سعيد بنكراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.

١٠. الشخصية القيادية، ئاسو صالح سعيد علي، حسين وليد حسين عباس، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠١٦.

١١. شعرية الخطاب السردي، دراسة، محمَّد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.

١٢. طرائق تحليل السرد الأدبي، رولان بارت وآخرون، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط١، ١٩٩٢م.

١٣. علم النفس والأدب، سامي الدوربي، دار المعارف القاهرة، ط٢، ١٩٨١.

١٤. غائب طعمة فرمان روائياً: فاطمة عيسى جاسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٤م.

١٥. فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتيّة جماليّة)، حبيب مونسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١م.

١٦. في نظرية الرواية، بحث في تقنيّات السرد، عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م.

١٧. الكاتب والمنفى، عبد الرحمن مُنيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار التنوير للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٤م.

١٨. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٥ م.

١٩. النقد الأدبـي الحديث، محمَّـد غنيمي هلال، دار نهضـة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٧م.

المجلات و الدوريات

١. محاولة تحليل نفسـية البطل العربي في التصوف والأنثروبولوجيا، مجلة الباحث عدد (٣)، باريس،١٩٧٨م.